مقدمة

الحمد لله الرحمن ،الذي علّمَ القرآن ، خلق الإنسان ، علّمه البيان ؛ والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد محمد المصطفى، و على آله وصحبه ومن والاهم ، الذين حملوا القرآن وبلّغوا الأنام.

وبعد، فإنّ اللغة أداة الفكر الإنساني ووعاؤه، وهي مما أنعمه الله على الإنسان، ولم يتركه ليَهيم على وجهه في هذه الحياة غفلاً من كل عون، بل زوّده بأدوات الحياة: بالعقل والفكر، واللغة والبيان، وأرسل رسلاً برسالات من عنده،كلاً بلسان قومه، معلمين منوّرين . ومنح كل رسول في عصره من معجزات دانت لها رقاب قومه، وتحدت ما كانوا يملكون من قوة . فأعطى سليمان عليه السلام ما لم يعطه أحداً، وتحدى موسى عليه السلام بمعجزاته علم السحر في عصره. وتحدى المسيح عليه السلام طب عصره بما آتاه الله من معجزات طبية. وأما خاتم الأنبياء ﷺ فجاء بختم المعجزات، جاء بما هو أعظم وأدوم، جاء بالإعجاز القرآني لغةً وفكراً ومنهج حياة، ودارت رحى هذا التحدي منذ أن أطل على البشرية إلى يومنا هذا، وستطول وتطول إلى ما شاء الله.

لقد نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف تيسيراً للعالمين، ليقرأوه ذاكرين، إذ لا يراد بالسبعة حقيقة العدد، وإنما يراد بها السعة والمبالغة، وتكثير وجوه القراءة بها طردياً مع كثرة العادات الكلامية في شعوب العالمين كلها، وليس حصراً في العادات الكلامية في قبائل العرب زمن نزوله. جاء القرآن ليكون هدى للعالمين، ليقرأه العربي والعجمي بما تعودوا عليه من عادات كلامية . ومن هنا آثر بعض المحدثين أن تسمى العربية باللغة الإسلامية، لأنها لغة الإسلام ؛ وهي لغة الدين للشعوب الإسلامية.

لقد تعددت القراءات القرآنية في عهد النبي ﷺ بتعدد العادات الكلامية في قبائل العرب عموماً، وفوجئ كبار صحابة النبي ﷺ بذلك، حتى وصل الأمر بهم

في بعض الأحيان إلى اتهام هؤلاء القارئين بالكذب والتحريف ؛ وكاد يشك بعضهم في القرآن نفسه حتى أفهمهم النبي ﷺ أنّ الله ﷻ يسر القرآن للذكر فأنزله على سبعة أحرف.

لقد صاحبت القراءات القرآنية نزول القرآن ودخول العرب من كل القبائل في الإسلام. فأقبلوا على قراءة التنزيل العزيز، كلٌّ ميسَّرٌ أن يقرأ بلهجته التي جرت عادتهم عليها، تحقيقاً لقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: 17]، ولم يبق أمامهم أي عائق للتعامل المباشر مع القرآن، ولم يجدوا أي مسوّغ للنكوص أوالتنصل.

فهذا القرآن الميَسَّر متفرد بكثرة قراءاته من بين الكتب المقدسة، وهذه الميزة من تيسير القرآن، وليست مما يؤخذ عليه كما ذهب إليه المستشرق جولد تسيهر.

إنَّ تعدد وجوه القراءات بهذه الكثرة كان وراء قيام نخبة من الأمة بجمع القرآن على رسم معين كان غاية في الإتقان عرف بالرسم العثماني نسبة إلى الخليفة الشهيد ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ (الذي جرى مشروع الجمع بأمره).

واستمر تعدد وجوه القراءات القرآنية بعد إنجاز المصحف العثماني. وغدت دافعاً إيجابياً في نفوس العلماء، إذ بدأ النحاة الأُوَل ـ وهم القراء الذين نشأ النحو على أيديهم كأبي الأسود وتلاميذه نصر بن عاصم وابن هرمز ويحيى بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون الأقرن ؛وابن أبي إسحاق وتلميذيه عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، ويونس، والخليل، وأبي جعفر الرؤاسي والكسائي ـ يوجهون اهتمامهم إلى الدراسات اللغوية بتأثير هذه القراءات؛ فكانت القراءات هي العامل الأساس وراء نشأة النحو و تقدمه. إذ قاموا بالملاءمة بين القراءات والعربية، بين ما سمعوا ورووا من القراءات وبين ما سمعوا ورووا من كلام العرب. فوضعت بذلك اللبنات الأولى للنحو العربي من الظواهر اللغوية التي وجدوها في القراءات القرآنية ثم فيما سمعوا من كلام العرب.

كان نزول القرآن نقلة بعيدة في الحياة الفكرية للعرب، ثم في حياة الشعوب الإسلامية عموماً، فكان وراء إبداعات وإنجازات كثيرة ولا سيما علم اللغة، ومنها نشأة النحو.

لقد شغلت القراءات أذهان النحاة منذ النشأة الأولى للدرس النحوي، فقاموا بتوجيه تلك القراءات التي تخالف قراءة العامة، أي ما خالف الرسم العثماني ؛ ومن هؤلاء النحاة أبو زكريا الفرّاء (ت207هـ) إذ أملى في كتابه الرائد (معاني القرآن) توجيه الكثير من القراءات، وهو يعد إلى الآن أول كتاب وصل إلينا تَمَثَّل فيه النحو الكوفي ؛ فهو ككتاب سيبويه للنحو البصري. وقد تميز هذا الكتاب بإدخال النحو في تفسير القرآن، إذ قدم المستويات اللغوية من خلال توجيه القراءات القرآنية التي تمثل لهجات العرب وعاداتها الكلامية ؛ فلولا تعدد وجوه القراءات بهذه الكثرة لما وجد ذلك الكم الهائل من الألفاظ والأبنية والتراكيب والمفاهيم اللغوية العامة والخاصة التي تمثل عصب علوم اللغة العربية في بواكير نشأتها.

وقد ظهرت في القراءات صور من الاستخدام اللغوي تخالف القياس العام، وتخالف المألوف والعرف اللغوي ؛ فكانت بحاجة إلى بيان قوة وجه العربية فيها حتى تعيد إلى تلك القراءات قوتها ومنزلتها في اللغة القرآنية. ومحاولة الفراء في (معاني القرآن) قد حققت تلك الحاجة ببيان قوة وجه العربية في جميع تلك القراءات التي تناولها بالتوجيه. وهذا تحقيق لطرف من وعد الله ﷻ بحفظ التنزيل العزيز، لأنه سبحانه قد يُجري هذا الحفظ على يد جنوده من العلماء وغير العلماء ليجزيهم خيراً.

ويكمن في محاولة الفراء لون من الرغبة في توحيد كلمة الأمة على قرآنها. وتوحيد الأمة على قراءة واحدة كان حلماً راود الكثيرين إلى يومنا هذا. فقد قام المخلصون من هذه الأمة في منتصف القرن الماضي بتسجيل القرآن الكريم بصوت المقرئ الشيخ محمود خليل الحصري ؛ ثم قاموا بتوزيعه على الأقطار الإسلامية، بهدف توحيد قراءة القرآن الكريم. وفي إيران قامت وسائل إعلامهم أيضاً ببث تسجيلات القرآن الكريم بأصوات المقرئين العرب، وكان من قبل حصراً في مقرئيهم.

وقد سارت حركة توحيد القراءات في رسم المصحف العثماني، وتسجيلات المقرئين، وتيسير القرآن بتعدد وجوه القراءات، في خطين متوازيين لا يمنع أحدهما الآخر من المسير ما بقي التيسير تيسيراً، على مستوى الأفراد والأمة، وتحقيقاً لما وعد به سبحانه: ﴿إِنَّا نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

كانت لكتاب (معاني القرآن) مكانة خاصة في نفسي وشعوري حقاً، فأحببت أن تكون دراستي في موضوع من مواضيعه اللغوية. وقد اطلعت على دراسة د. أحمد مكي الأنصاري : (أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة) التي أنجزها عام 1960م، فوجدتها قد قامت بتغطية واسعة لحياته وآثاره بصورة مفصلة استغرقت ثلاثة أخماس ونصف من الكتاب، وعني في بقية الدراسة بالمدارس النحوية ثم بكوفية الفراء، وبعدها ركز بالتفصيل على نسبة تأسيس المدرسة البغدادية إليه، وعني بالقياس عند الفراء، وبمصطلحات الفراء، ثم عرض أهم أفكاره في النحو واللغة عرضاً سريعاً.

وفي سبيل ذلك استشرت أحد أساتذتي الكرام عن جدوى الدراسة في معاني الفراء، فأرشدني بعد أن فكرنا فيه ملياً، إلى اختيار التوجيه اللغوي للقراءات عند الفراء، فكان الموضوع في غاية الأهمية لأن التوجيه اللغوي يعني دراسة المستويات اللغوية في لهجات العرب ولغاتها، ولاسيما عند الفراء، إذ اعتمد على كلام العرب لاستنباط قواعد العربية بغية توجيه تلك القراءات المشكِلة التي تَمُتُّ بصلة وثيقة إلى السلوك اللغوي للعرب.

استقر الباحث على الموضوع، وكان عنوانه : (**التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية عند الفراء في «معاني القرآن»**) ؛ والموضوع في حدود علمي ومن استشرتهم لم يدرسه أحد، والذي دُرس عنه في الدوريات شيء قليل عن موقف الفراء من القراءات القرآنية، والمنهج الصوتي عند الفراء، وكتابٌ عن بعض موضوعات النحو الكوفي عند الفراء، ولم أجد شيئاً آخر في الفهارس الخاصة بالرسائل والكتب في مجال اللغة والقراءات القرآنية. فعزمت وتوكلت، وتفاءلت بالخير فوجدته، فكان نعم الموضوع فيما بدا لي، إذ هيأ لي أن أعيش في رحاب التنزيل العزيز زمناً، والحمد لله.

وبما أن هذا البحث يتناول المستويات اللغوية، فقد اقتضى ذلك أن يبنى على ثلاثة فصول يتقدمها تمهيد وتعقبها خاتمة تجمل معالم البحث ونتائجه.

فقد جاء التمهيد ببيان لمعنى (التوجيه) لغة واصطلاحاً، وتتبع ظهور بدايات هذا المصطلح في توجيه القراءات، حتى اكتمل في صيغته الحالية، على يد علماء التوجيه في تراث توجيه القراءات، في الكتب المتخصصة بالتوجيه، أو في

تفاسيرهم، أو في مباحث في علوم القرآن، ثم بيّن مكانة الفراء في توجيه القراءات، وريادته لمن تناول التوجيه ممن جاؤوا بعده، وبيّن ما سار عليه من مبادئ أساسية في التوجيه.

وقد تناول توجيه القراءات المستويات اللغوية كلها، ولهذا قام البحث على الفصول الثلاثة، يعالج في كل فصل توجيه مستوى، على أن يتوزع التوجيه الدلالي في تضاعيف الفصول الثلاثة، لأن الجانب الدلالي مع كل مستوى كوجهي العملة الواحدة.

فالفصل الأول: تناول التوجيه الصوتي للقراءات، في أربعة مباحث، حيث تخصص المبحث الأول لظواهر التماثل الصوتي في القراءات، حيث وقف طويلاً عند ظاهرتي التماثل المقبل والمدبر والكامل في قضايا الإبدال بين الصوامت تارة، والمصوتات الطويلة تارة أخرى، وبين المصوتات القصيرة كذلك ؛ وكذلك في الإمالة والإشمام والإتباع والإدغام، والإخفاء، وموقف الفرَّاء من الإدغام في كلمتين منفصلتين. وبيَّن في المبحث الثاني ظاهرة التخالف في الخفة والثقل، حيث وجه القراءات في ضوئها، من التخفيف بالحذف، أو بالتسكين أو بتحريك الساكن، وبردّ الحركة إلى الأصل.

و قد اعتنى في المبحث الثالث بمراعاة الفاصلة والتوافق الإيقاعي في الجملة القرآنية عند الفراء، وختم الفصل الأول بتوجيه مسائل الوقف والوصل في المبحث الرابع.

وتكفل الفصل الثاني بالتوجيه الصرفي للقراءات، في قسمين: خصص أولهما لتوجيه الأفعال صرفياً، ضمن ستة مباحث. وقد تعرض في المبحث الأول منه لتوجيه تآخي الصيغ الفعلية في المعنى الواحد أو المتقارب. وفي الثاني تكلم على اختلاف المبنى لاختلاف في المعنى. وتحدث في الثالث عن وجوه التحول بزيادة المبنى لزيادة في المعنى. وقام المبحث الرابع بدراسة التحويل في اللواصق التصريفية في القراءات. والمبني للفاعل والمبني للمفعول بُحثا في المبحث الخامس. أما المبحث الختامي فكان في توجيه الأفعال التي تغيرت صورتها بالحركات الداخلية أو بالقلب المكاني.

وتناول القسم الثاني الأسماء بالتوجيه صرفياً، في ستة مباحث، جعل

المبحث الأول خاصاً ببيان تآخي الأسماء والصيغ في المعنى الواحد أو المتقارب. ووقف المبحث الثاني عند ظاهرة اختلاف المبنى لاختلاف المعنى في الأسماء. وجاء المبحث الثالث ليخص توجيه التحويل في المفرد والجمع. وضَمَّ المبحث الرابع بين دفتيه توجيه مسائل صرفية عديدة في الأسماء،كالاسم البسيط والمركب، والقلب المكاني وغيرها. وأحاط المبحث الخامس بمسائل المشتقات، من تحويل الأسماء إليها، وفيما بينها. وانتهى الفصل الثاني بدراسة مظاهر التحول في المصادر، فيما بينها، وبينها وبين الأسماء عموماً والمشتقات خصوصاً.

أما المستوى النحوي فهو قمة الدراسات اللغوية، ومجمع المستويات الأخرى، قد وضع في الفصل الأخير في قمة الهرم : في ثمانية مباحث، المبحث الأول أخذ على عاتقه دراسة بعض الأبواب النحوية : حيث درس فيه أن أصل خبر ما العاملة عمل ليس : هو الاقتران بالباء. ودرس الأدوات النحوية، ومباشرة الفعل بمفعوله أو بالوساطة، والاستثناء، والتمييز، وجوانب من الإضافة، والتوابع، والعطف، والبدل، وقضايا الممنوع من الصرف. وقد تناول المبحث الثاني قضية العامل والمعمول، في إطار العمل الإعرابي. وقد شمل جملة من العوامل التي تبناها الفراء في توجيه القضايا الإعرابية. وحظيت العلامة الإعرابية، وظيفتها ودلالتها بالدرس في المبحث الثالث. وقام المبحث الرابع بوصف الوجوه الإعرابية الاحتمالية المتعددة، وما يحتمل الإعراب على المعنى. وبيّن في المبحث الخامس أثر الوقف والاستئناف في التوجيه النحوي. وكانت الأحرف الزائدة المسمّاة بالصلة عند الفراء تشغل المبحث السادس.

و المبحث السابع عُني بحالات الحذف التي تعتري الأدوات النحوية وغيرها. ومسك الختام هو الزمن النحوي الذي لم يخل منه هذا البحث الشامل في توجيه المستويات اللغوية. أما الجانب الدلالي فهو مبثوث في الفصول الثلاثة ومباحثها الكثيفة.

وفي الخاتمة لُخصت المعالم الكبرى لأهم أفكار الفراء والنتائج التي توصّل إليها هذا البحث.

و استوجبت طبيعة هذا البحث أن يكون منهج البحث على طريقتين:

الأولى: أن يسلك الباحث طريقة الواصف المقيِّم لِما قام به الفراء من التوجيه بطريقته الوصفية للمستويات اللغوية.

أمّا الأخرى : فهي مما اقتضاه البحث فاستلب من الباحث وقتاً طويلاً، وأثقل بها الهوامش ،وهو تخريج القراءات وتوثيقها، والتحقيق في صحة نسبتها إلى قرائها. والقيام بالتأكد من وجود قراءات لم يسمعها الفراء، مما أجاز من بعض الوجوه التي لو قرئ بها. وفي سبيل ذلك رجع الباحث إلى مصادر القراءات، وابتدأ بمعجم القراءات القرآنية،للدكتور أحمد مختار عمر، والدكتور عبدالعال سالم مكرم، الذي يعد عملاً مباركاً لا يستغني عنه أي باحث في القراءات. ولا يقدح فيه ما فاته من بعض القراءات التي ذكرها الفراء في المعاني. فقد أطلعه هذا المعجم على وجوه القراءات التي وردت بها، ومصادر تلك القراءات، وبذلك تيسر له الأمر بعض الشيء والحمد لله.

ومن أُمّهات المصادر في القراءات التي أصبح هذا البحث مديناً لها: كتاب السبعة لابن مجاهد، والتيسير للداني، والنشر لابن الجزري، والإتحاف لابن البنا، وكتب الاحتجاج والتوجيه: كالحجة لابن خالويه، والمحتسب لابن جنّي، والكشف لمكي، والحجة لابن زرعة. واعتمد الباحث على كتب معاني القرآن لأبي عبيدة والأخفش والزجاج وأبي جعفر النحاس، وكتب إعراب القرآن : ومنها إعراب القرآن للنحاس، والتبيان للعكبري. وكذلك على تفاسير القرآن، ومنها تفسير الطبري الذي كان يعتمد على توجيهات الفراء، ومع ذلك غمط حقه فلم يعز إليه ما نقله منه حرفياً غالباً إلا قليلاً، والكشاف للزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

وإن تعسر على الباحث تخريج قراءة من القراءات أشار في الهامش إلى ذلك.

ومن جهة أخرى استعان الباحث بالمصادر اللغوية لإغناء البحث بآراء العلماء الذين سبقوا الفراء أو تأخروا عنه. ولذلك كان لكتاب سيبويه الحضور الدائم في هذا البحث، لعرض كل قضية لغوية عليه، لمعرفة منزلة الفراء في الدرس اللغوي، وكذلك كان لابن جني حضور بالخصائص وسر الصناعة فضلاً عن المحتسب، وكان لكتاب (الله جات العربية في التراث) للدكتور أحمد علم

الدين الجندي أثره في دعم هذا البحث بمعلومات قيمة، ورفدته كتب الدكتور إبراهيم أنيس بآراء لا يستغنى عنها، ومصادر أخرى يشهد لها ثبت المصادر والمراجع بدورها في إثراء مباحث هذا الجهد المتواضع.

و بعد استنطاق المصادر عن توجيه العلماء لتلك القراءات والقضايا اللغوية، قام الباحث بالترجيح بين الآراء إما صراحة أو بتضمين ذلك في عبارات أو إشارات موحية.

و استعان الباحث بآراء المتقدمين والمحدثين في تحليل القضايا اللغوية، ووقف إلى جانب الرأي الموافق للحقيقة بموضوعية، ولم ينحز إلا إلى وجه ظُنَّ الحق فيه.

وقد أولى هذا البحث الجانب التطبيقي جُلَّ اهتمامه في كثير من مباحثه، ليتحقق ما أراده الفراء من سلوكه هذا الاتجاه نحو إيجاد وجه قوة العربية في تلك القراءات المشكلة، وبيان سبب اختيار القارئ للوجه الذي قرأ به، في إطار المستويات اللغوية.

و لم يخل هذا البحث من الصعوبات والمعوقات كما لم يخل أي عمل آخر منها، وأهم ما لاقى إكمال هذا البحث شحة المصادر وندرة بعضها، وصعوبة الحصول على بعضها، وعلى سبيل المثال كتاب الحجة للفارسي، غير متوافر في المكتبات، فلم يحصل إلا على الجزء الأول منه، وذلك في نهاية المطاف، حيث لم يستطع أن يوظفه في مباحث هذه الأطروحة إلا قليلاً جداً.

ومن الإشكاليات التي لقيها الباحث ترتيب أسماء القراء عند الإحالات في الهوامش، إذ رأى أن معجم القراءات لم يراع الترتيب الزمني ولا الهجائي، لهذا قام الباحث بتقديم من هو الأشهر على المشهور ثم غير المشهور ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وكل ما يرجوه الباحث في الختام أن يكون عمله المتواضع قد آتى ثماره، وحقق ما تعب من أجله، وهو تقديم أكبر أثر من آثار أبي زكريا الفراء في دراسة موضوعية جامعة وميسرة لطلاب العربية في الدراسات اللغوية القرآنية، فيجدوا فيه الجواب الشافي لما يجدون من عنت في فهم ظاهرة تعدد وجوه القراءات القرآنية.

ولا يدعي الباحث خلو بحثه من عيوب ومآخذ، لذا يرجو من القارئ الكريم أن يغض عنها إن وجد شيئاً يعكر مزاجه، ويأخذ بنظر الاعتبار ما قدمه الباحث من جهد جهيد في سبيل تحقيق مشروع علمي يخدم القرآن الكريم ولغته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وله الحمد في الأولى والآخرة.

طه صالح أمين آغا